لغة التعليم العالي: العربية أم الأجنبية؟

عبد الحي عباس(*)

باحث عربي ـ سورية.

ـ ١ ـ

موضوع اليوم ذو أهمية كبيرة، على المثقفين أن يتناولوه بالدراسة والتحليل الموضوعي وتبادل الآراء، في مناخ تعاوني بنّاء، يتجاوز الآراء الشخصية الناتجة من انطباعات سطحية. كما لا بد في دراسة موضوع كهذا، من التفكير روية في تأثيراته في الطالب ومستقبله بعد تخرجه، وفي نتائجه البعيدة على المجتمع والأمة والهوية. وعلى الباحثين ذوي الخبرة أن يبدوا رأيهم فيه من جوانبه المختلفة، اللغوية والعلمية والاجتماعية والتاريخية؛ ولا بد من أن يتحلى هؤلاء بفكر نقدي حر، قادر على الخروج من الإطار الذي وضعته فيه ثقافة أجيال عديدة، أملتها ظروف غير سليمة، كانت فيها الأمة العربية مسلوبة القرار، مهانة الهوية ناقصة الثقافة، انتشرت فيها الأمية بين العامة، وثقافة المستعمر لدى الخاصة القليلة. وقد نتج من ذلك إنسان ضائع بين هويته و«مكياج» الآخرين، عاجز عن الطيران الحر والتغريد باللحن الذي يحب، غرد ورقص على لحن غيره ولم يتقن هذا ولا ذاك.

تحاول الأمة العربية أن تستيقظ اليوم، وهي تبحث عن ذاتها، وعلى الأعين غشاوة.. هناك قوى خارجية ذات مصالح في أرض هذه الأمة، لا تريد لهذه الغشاوة أن تزول عن العيون ـ حتى عن عيون المثقفين ـ بفرض جو ثقافي يخدم هذه المصالح الآنية منها والبعيدة، وذلك بطرق ظاهرة أو خفية، تنفذ فيها إلى عقول المثقفين ـ وهم ضمير هذه الأمة ـ لتستمر الأمة في التخبط والفوضى.. ذلك ما يبغون.

لذلك، لن يكون اكتساب التفكير الحر المتبصر سهلاً في ظروف كهذه.. إنما هو الطريق ربما الوحيدة، إذا كان لنا أن نعود إلى الإبداع وإغناء الثقافة العالمية والمساهمة الفعالة في مسيرتها، مع حق الاحتفاظ بالهوية، وهو حق الأمم جميعاً.

حين نتكلم على التعليم بالعربية أو الأجنبية، نتكلم على الذات أو الآخر، حيث عادة ما يعُرف

(*) البريد الإلكتروني:

المنارة للاستشارات

الإنسان بلغته الأم. هو ضمن هذا التعريف، أحب أم لم يحب، لا خيار له في ذلك، وهو لا يستطيع تبديله، ويجب ألا يكون هنالك ضرورة لمحاولة ذلك. فهو مكرّم من حيث إنه من بني آدم، هو مكرّم لإنسانيته، والناس سواسية، والكرامة حق للجميع أقرته الشرائع السماوية والأرضية، وليس لأحد أن يسلبه هذه الكرامة، أو يحاوره في حقه بها؛ كما لا يحق له هو أن يتنازل طواعية عنها.

المثقف الحقيقي يدرك هذه الحقيقة، هو يحترم الآخر لإنسانيته، ولا يحاول أبداً أن يلغي الآخر أو أن ينظر إليه من علٍ، إن فعل ذلك خرج عن دائرة الثقافة الحقيقية إلى دائرة الغوغائية والثقافة المزيفة. كما لا يليق بالمثقف أن يبجل الآخر إلى حد العبودية الفكرية، فيحاول تقليده بما يناسبه وما لا يناسبه؛ إن فعل ذلك ظلم ذاته وظلم هويته وشوّه ثقافته.

واللغة هي الجزء الأهم من الهوية، وهي وعاء ثقافة الأمة. والحضارة الإنسانية نهر كبير روافده ثقافة الأمم جميعاً، ويختلف صَبيب هذه الأمم باختلاف الزمان والظروف. ولقد ساهمت كل أمم الإنسانية في هذا النتاج الحضاري بمقدار أكثر أو أقل، لنصل إلى ما نحن فيه اليوم.

ولم يكن لعلماء اليوم أن يكونوا حيث هم، لو لم تحملهم أكتاف العلماء السابقين. وإذا كان للأمم أن تتباهى بما قدمته لبحيرة الحضارة الإنسانية المشتركة من علوم بمختلف أنواعها، فللعرب أن يكونوا فخورين. المؤرخون المنصفون شهدوا لهم بذلك.. هم نقلوا العلوم بين الأمم، وأضافوا إليها الكثير الكثير، وأيقظوا الغرب من سبات وجهل عميقين، فعلوا ذلك بأخلاقية لم يعرفها التاريخ. فلا هم ألغوا الآخر، ولا نادوا بضرورة صراع الحضارات، وكان العلم عندهم مقدساً بعيداً عن السياسة، مشاعاً للجميع، وكانت اللغة العربية هي الأداة المستعملة، وبقيت كتبها أمهات الكتب لقرون طويلة. لسبب ما وجدتني مشدوداً أكثر من مرة إلى أن أتكلم في هذا الموضوع. كتبت عنه في مجلة **العربي** منذ سنوات قليلة، ثم تكلمت في مؤتمر لعمداء كليات الطب في الوطن العربي عقد في دمشق عام ٢٠٠٧؛ وها أنا أجدني اليوم أثيره مجدداً.

ربما كانت حياتي المتنقلة في المكان واللغة، دافعاً وعذراً لي لأسمح لنفسي بأن أخوض في موضوع أكبرَ مني. حاولت أن أكون موضوعياً ما استطعت، إلا أنني أدرك أن برمجة العقل والقلب في الطفولة الباكرة لا بد لها من أن تؤثر وتظهر في منحى أية مناقشة بقية حياة الإنسان، والخروج من إطارها والتحرر من قيودها إلى الحرية المطلقة والحيادية الكاملة في التفكير والهوى، من الأمور الصعبة وربما المستحيلة. ولقلبي في هذا الموضوع هوى ستظهرُ آثاره، وكل ما أرجوه أن نناقش الموضوع بأكبر قدر ممكن من التحرر الفكري والنقد البناء.

اسمحوا لي أن اختصر مسيرة حياتي، إذ هي من صلب الموضوع. وُلدت في حمص ودرست فيها حتى الثانوية، ثم درست الطب بالعربية لسبع سنوات في جامعة دمشق، وكان الاختصاص في أمريكا لخمس سنوات بالإنكليزية، درّست بعدها الطب في جامعة دمشق حوالى عشرين عاماً بالعربية، وألّفت كتاباً مدرسياً بها، قبل أن أعود إلى أمريكا حيث درّست ومارست لخمسة عشر عاماً بالإنكليزية، ثم عدت إلى دمشق لأمارس الطب بالعربية. بذا، أكون قد تعلمت التعليم العالي بالعربية والإنكليزية وعلّمت في التعليم العالي بالعربية والإنكليزية، الأمر الذي قد يسمح لي أن أتكلم في هذا الموضوع.

الـمنارة للاستشارات
ww

ـ ٢ ـ

في موضوعنا رأيان:

الأول يقول بالتدريس بالعربية، وهو ما تأخذ به جامعاتُ الدولة في سورية. و**الثاني** يقول بالتدريس باللغة الأجنبية، وهو ما تأخذُ به الجامعات العربية في معظمها، وكذلك الجامعاتُ الخاصة في سورية. ولكل من الفريقين قناعتهُ المبنيةُ على حُجج ومبررات. دعونا نرَ ما يقولون ويكتبون دعماً لرأيهم.

١ ـ يقول الفريق المؤمن بالتدريس بـ **اللغة الإنكليزية** إنها لغة الدولة الأقوى علمياً واقتصادياً؛ فبالإنكليزية تصدر أهم الكتب والمراجع العلمية، والمجلات الإنكليزية هي الأكثر انتشاراً، وتحمل المستجدات، والمؤتمرات العالميةُ تتكلم بها، وللّغة الإنكليزية هيمنتها على لغة الاتصالات والمعلوماتية، بما فيها الشبكة العالمية. لذا، فالتدريس بالإنكليزية يمكّن الطالب من الرجوع إلى المراجع والدوريات ومعلومات المواقع العلمية المنتشرة، بشكل أسهل.

ثم إن التدريس بالإنكليزية يهيئ الطالب لمتابعة الدراسة ما بعد الجامعية في البلدان التي تتكلم الإنكليزية، دونما جهد كبير؛ والتدريس بها أيضاً يجعل من السهل على الطالب والخريج حضور المؤتمرات الدولية والمشاركة فيها، حيث في معظمها تعتمد الإنكليزية.

وأخيراً، فإن التدريس بها يفتح فرص عمل أكثر للخريج في مهن كثيرة، تتطلب من القائم بها التكلم بالإنكليزية، كما في كثير من الأعمال المالية والاقتصادية والسياحية وغيرها.

والعولمة دمجت العالم اقتصادياً وثقافياً تحت قبة الولايات المتحدة الأمريكية، ولغتها هي لغة العولمة.

لا شك في أنها حجج قوية مقنعة للكثيرين، تعتمد على واقع فرض نفسه علينا وعلى غيرنا، ويقول أصحابها إن إنكار هذه الحقيقة ضرب من المكابرة الضارة، ولا بد لنا من الاعتراف بها وقبولها والسير معها، بذلك تقضي المصلحة المبنية على «البراغماتية»، فلندرّس طلاب جامعاتنا باللغة الإنكليزية.

٢ ـ الفريق الآخر القائل بالتدريس بـ **اللغة العربية**، يقول ما يلي:

أ ـ الهدف الأهمُّ لساعة التدريس هو تقديم المعلومات من قبل الأستاذ إلى الطالب بشكل مبسطٍ مفهوم يسهل استيعابه وهضمه، ويخفف من العناء والوقت على الطالب. بذا يقاس مردود الدرس بمادةٍ معينةٍ، وليس بمقدار ما يتعلمُ الطالبُ من اللغة الإنكليزية في درس مثل أمراض العين أو الجغرافيا.

ومردود الدرس بهذا المفهوم عطاء من الأستاذ، وتلقٍ من الطالب؛ وتكون عملية التعلم في أفضل أحوالها، عندما يتكلم الأستاذ بلغته الأم، ويسمع الطالب بلغته الأم؛ مهما بلغ إتقان كل منهما اللغة الأجنبية، كما أثبتت التجارب كلها. وفي حالنا قد تكون الخسارة في المردود كبيرة، لعدم إتقان الأستاذ والطالب اللغة الإنكليزية بالشكل المطلوب في كثير من الاختصاصات، مما

المنارة للاستشارات

يجعل الدرس مجرد تحديد للمادة المطلوبة، يتعب الطالب بعدها في دراستها بجهده؛ وهذا أقرب إلى الدراسة عن بعد. هذا أمر واقعي علينا أن نقبله إذا قلنا بـ «البراغماتية».

ب ـ التدريس باللغة الإنكليزية سيحرم المختصين بدراسات عالية في بلدان لا تتكلم الإنكليزية، كفرنسا أو ألمانيا أو روسيا، من أن يسهموا في التعليم العالي رغم كفاءاتهم العلمية، وهم كثيرون في بلادنا، وسيتزايد عددهم بسبب إغلاق أمريكا وإنكلترا الأبواب في وجه خريجي جامعاتنا في اختصاصات كثيرة.

ج ـ يورد القائلون بالتدريس باللغة العربية نجاح تجربة جامعة دمشق، وبخاصة كلية الطب فيها، حيث لم تمنع الدراسة بالعربية فيها خريجيها من التخصص في أمريكا أو إنكلترا. ففي الجمعية الطبية العربية الأمريكية، التي تضم المتخرجين في جامعات البلدان العربية والعاملين في أمريكا، يُشكل خريجو الجامعات السورية، وخاصة جامعة دمشق، النسبة الأكبر فيها، بلا منافس؛ وكثيرٌ منهم يشغلون مناصب علمية مرموقة.

ويستشهد القائلون بالتدريس باللغة العربية بقول أ. د. مرشد خاطر، الذي درس الطب في كلية الطب الفرنسية في بيروت، وتخرج عام ١٩١١، وكان أستاذاً في المعهد الطبي العربي، ووضع منفرداً أو مشتركاً مع زملائه ـ كما يقول الكاتب د. جوزيف كلاس ـ مؤلَّفات عديدة باللغة العربية، منها مراجع في علم الجراحة، كما أصدر مع أ. حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي **مجلة المعهد الطبي العربي** وترجم معجم كليرفيل المتعدد اللغات.

يقول خاطر: «لقد كانت اللغة العربية منارةً استنار بها العالم حقبة طويلة من الدهر، فنقلت شتى العلوم من طب وكيمياء ورياضيات؛ غير أن هذه اللغة الحية النشيطة، ذوت أغصانها الرطبة، بعد أن نضب نسغُ العلم في عروقها، وكاد يدركها الموتُ لو لم تكن لغة دين يدين به الملايين من البشر، ولو لم يكن **القرآن الكريم** يرعاها ويصونها. فإذا أردنا لهذه اللغة حياة خالدة، وجب على أبنائها العلماء، أن يتعهدوها بماء العلم يجري في عروقها، فتعود إليها نضارتها القديمة وسناؤها الفاتن».

د ـ ويرد مؤيدو التدريس بالعربية على المبرر الذي ذُكر عن هيمنة اللغة الإنكليزية عالمياً من خلال نقطتين:

الأولى أن هذا المبرر ينطبق على العالم كله، والعولمة باللغة الإنكليزية شملت الجميع بالقوة نفسها؛ فلماذا لم تنتبه إلى ذلك، دول العالم الآخر غير المتكلمة بالإنكليزية، ولماذا لم تعتمد اللغة الإنكليزية لغةً لتعليمها العالي. ها هي فرنسا تدرس بالفرنسية وتنشط وتبذل الجهد لدعم الفرانكفونية، وها هي ألمانيا تدرس بالألمانية وتفتح معاهد غوته في كل أنحاء العالم لنشر لغتها.

قد يقال إن لهذه الدول مساهمة ملموسة في العلوم، إذن ما شأن رومانيا وإيران وتركيا والدانمارك وهنغاريا وغيرها من دول صغيرة في مساحتها، قليلة في عدد سكانها، تدرّس بلغاتها؟ ثم إن إسرائيل أصدرت قراراً تدرِّس فيه بالعبرية.

هل تستطيع هذه الدول القيام بمتطلبات التدريس بلغاتها من ترجمة وغيرها، وتعجز الأمة العربية بمساحتها وتعداد سكانها وثرواتها الطبيعية وتاريخها المشرف عن القيام بذلك؟

المنارة للاستشارات
ww

والنقطة **الثانية** هي أنه إذا كان مبرر التدريس باللغة الإنكليزية هو حقيقة كما يقول مؤيدو هذا الرأي، نتيجة دراسة موضوعية حرة تقيّم مصلحة الطالب والأمة، وليس مظهراً ربما لا شعوري لبقايا استعمار فكري، تغلغل في اللاشعور بعد سنين طويلة من ضياع الفكر العربي وتعرُّض الثقافة العربية لضربات متتالية من جهل وظلم واستهانة واستباحة، مما أفقد المواطن العربي ثقته بإمكانياته واحترامه لذاته، وظن أنه يرتفع بتقليده السيد المستعمر، فلماذا إذن تدرّس جامعات البلدان العربية في شمال أفريقيا باللغة الفرنسية، وهي ليست لغة العولمة المهيمنة، وإنما هي لغة السيد الذي كان هناك، لغة الرجل الأبيض؟

ـ ٣ ـ

يقول الداعون إلى التدريس باللغة العربية، إن هذا الشعور بالدونية لم يحدث عفوياً، وإنما كان نتيجة دراسة وتصميم.

المستعمرون هم خصوم هذه الأمة، ويخشون تقدمها، قدّموا تاريخها لشعوبهم مشوهاً كما يقول أ. **إدوارد سعيد** في كتابه **الاستشراق**، هم يريدون للأمة العربية أن تنسى هويتها، ويريدون أن تُمزق هذه الهوية إلى هويات عديدة. هم يضعون الحدود بينها على خارطة بين أيديهم، ولا بد لنجاح ذلك من هدم الدعامة الأقوى لبناء هذه الأمة، وهي لغتها.

يورد القائلون بالتدريس بالعربية لدعم دعواهم هذه حججاً مختلفة:

يشرح د. إدوارد سعيد في كتابه كيف أن كثيراً من المستشرقين، كانوا يتعمدون الإساءة إلى صورة العربي في ذهن المواطن الغربي، وكانوا هم أهم مصدر للمعلومات حينئذٍ إن لم يكونوا المصدر الوحيد.

ويقول أ. **عبد السلام المسدي**، وهو مفكر عربي كان وزير تربية في تونس: «اللغة العربية الفصحى تتأثر تحت ضغط اللغة الأجنبية، وضغط العامية، بشكل مرسوم في سجلات الخطط الاستراتيجية الدولية. فهناك جهات دولية تعرض تمويلاً سخياً لإنجاز مسلسلات عربية، شرط أن تكون بالعامية لا بالفصحى، وفي التشريعات التربوية الجديدة في فرنسا أُلغيت العربية الفصحى كلغة أجنبية، وحلّت محلها مجموعة من العاميات العربية كعامية شمال أفريقيا وعامية مصر وعامية المشرق العربي، كما تكونت أكاديمية للّغة «الأمازيغية»[(١)].

ثم يضيف: «لا بد من قرار سياسي على أعلى المستويات في العالم العربي، كما فعلت الصين وكما فعلت إسرائيل»، ويتابع: «من المؤسف أننا أمة لا تنفكّ تعمل على تضييع هويتها اللغوية دون رؤية استراتيجية، وإنني أعتبر أن ترك المسألة اللغوية حبلاً على الغارب من الصمت الآثم في اختياراتنا على مستوى الأنظمة وعلى مستوى النخبة الفكرية»، ثم يقول بعد شرح مستفيض: «هنالك خطاب ماكر يلتف على الواقع الذي يريد ربط الإرهاب باللغة العربية ذاتها بعد أن ربطه بالمعتقد الإسلامي».

---

(١) **العربي** (تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧).

المنارة للاستشارات

وفي دراسة لجيمس كوفمان (James Coffman) عام ١٩٩٥، وهو مدير الخدمات الثقافية الأمريكية الشرق أوسطية يومها، تتناول التعليم العالي في الجزائر، حيث الدراسات الإنسانية تدرس بالعربية؛ وجد أن الدارسين بالعربية أكثر تمسكاً بهويتهم العربية من الدارسين بالفرنسية.

ويرى الكاتب المعروف **نجيب محفوظ** أن التوحيد في اللغة يعني التوحيد في الثقافة والتقارب فيها إلى أقصى حد، وهو من الأسباب المهمة التي تعمل على الوحدة السياسية، ولا بد من السعي نحو نوع من الوحدة الثقافية العربية، علها تكون أبقى وأفعل وأعمق أنواع الوحدة، بعد أن انهارت أو تعثرت وحدات أخرى سياسية أو اقتصادية.

وقال إنه يريد أن يكتب لكل العرب وليس للمصريين فقط، وقد اختار اللغة الفصيحة في أعماله. ويعتبر محفوظ اللغة العامية من جملة الأمراض التي يعانيها الشعب، والتي سيتخلص منها حتماً عندما يرتقي، كما يعدّ العامية من عيوب المجتمع العربي، مثل الجهل والفقر والمرض تماماً، والعامية مرض أساسه عدم الدراسة، ويقول: «حمداً لله أن اللهجات العربية لم تتحول إلى شراذم من اللغات، كما حدث عندما انشقت اللهجات الأوروبية من أصلها اللاتيني وتحولت إلى لغات أوروبية عدة».

يتكلم د. **سليمان إبراهيم العسكري** رئيس تحرير مجلة **العربي** على خريطة شيطانية جديدة تمزق المنطقة العربية، بحيث لا يستطيع المواطن أن يتعرف إلى وطنه، ومما يقوله: إن رالف بيتر ـ وهو مؤلف روايات إثارة ورعب ويعمل في الدراسات الاستراتيجية، وله تأثير في مراكز القرار الأمريكي ـ نشر مقالاً تحت عنوان «حدود الدم: كيف سيبدو الشرق الأوسط أفضل؟» وفيه إعادة التقسيم الذي شكلته الدولتان الاستعماريتان إنكلترا وفرنسا بإنشاء دول تقوم على الطوائف أو الأقليات أو المذاهب وتحويل هذه الكيانات إلى مشروع حروب بينها. ويقول أ. العسكري: إن هذا منافٍ لحقيقة روحية وثقافية وتاريخية تشكل أهم رابطة متينة بين سكان هذا الشرق الأوسط العربي، وهي اللغة العربية وتراثها الحضاري الضارب في عمق التاريخ.

واللغة عند دارسي الهوية هي أهم الأدوات العملية الاجتماعية وأدوات صناعة الإنسان كما يقول أ. **ياسر سليمان**، الذي يعتبر أن اللغة ليست مجرد إشارات صوتية ذات دلالات عابرة، بل إنها تصوغ الكيانات التي تنتج منها؛ فاللغة تشكل الكائن البشري بقدر ما يشكلها هذا الكائن، واللغة العربية هي الجامع الأكبر لكل العرب على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم وأديانهم وحتى قومياتهم العرقية. وهم (يقصد الخصوم)، يسعون بلا ملل أو كلل إلى هدم هذه الثقافة الموحدة، ليسهل دائماً السيطرة والتحكم في ثروات ومصادر هذه المنطقة وشعوبها.

يقول د. **جورج صليبا** ـ وهو مفكر لبناني مقيم في الولايات المتحدة وأستاذ العلوم العربية والإسلامية في جامعة كولومبيا ـ في مقالة له عام ٢٠٠٦:

«إن البلدان استُعمرت وما زالت مستعمرة تعيش في أعماق الاستعمار، وجميع الأنشطة الفكرية تبقى تعاني من التخلف الاجتماعي العام الذي خلفه الاستعمار، نحن ما زلنا لا نعي

المنارة للاستشارات

ww

كيف نكوّن الهوية ونعيد ربطها بالتاريخ والتراث، الاستعمار أنشأ طبقة مثقفة فقدت الهوية الذاتية، وهي عندما تتلبس فكر المستعمِر تدخل في دوامة معه دائماً لصالحه وليس لصالحها».

وكما قال فرنسوا فانو عندما يتخلق المستعمَر بخلقية المستعمِر يصبح نسخة مشوهة عنه.

وفي ورشة عمل «المجلس العربي للطفولة والتنمية» عام ٢٠٠٧ في القاهرة، طالب د. **علي مدكور** بالانتباه إلى ما يُضْمَر للّغة العربية من حولنا. في وقت ينادي د. العسكري بما يدعوه «الأمن اللغوي»، ويدعو الى وضع نصوص تشريعية لحماية اللغة، قائلاً «لا بد من خلق جيل عربي يعتز بلغته، وعلى المثقفين أن تكون لديهم أجندة للحفاظ على اللغة والهوية».

ويقول د. **إبراهيم حداد** في مقاله: «لم يغفل المستعمر عن دور اللغة العربية وأهميتها الوحدوية القومية، فحاول إضعافها وتفتيتها، وعمل من أجل ذلك على تكسير وحدة الثقافة العربية وطمس اللغة العربية وتفريق كلمتها، وعمل على إبراز اللغة العامية واللهجة المحلية، وعمل على قبر العربية وسحقها في أقطار بكاملها وعلى إحلال لغته محلها، نشر في كل مكان وأذاع عدم صلاحية اللغة العربية للعلم والتعليم، مع إبراز سهولة استعمال الأحرف اللاتينية.

«أحلّ لغته محل العربية في التعاون والتسامر والتعامل، وأهم من هذا وذاك فرض لغته لغة التعليم في المدارس والجامعات للأجيال الصاعدة، كطريقة خبيثة لإنهاء اللغة العربية وانقراضها»(٢). ثم يقول: «إن بقاء التعليم العالي باللغة الأجنبية هو بقاء جسم غريب في جسم الأمة وهيكلها الوطني، يشوّه ويؤذي، وهو بؤرة مرضية».

ـ ٤ ـ

إذن، فالقائلون بالتدريس باللغة العربية يوردون مبرراً قومياً يتعلق بالهوية ذاتها، التي يرون أنها مستهدفة ممن لا يريدون الخير لهذه الأمة، فهم يعملون على تفتيتها أكثر مما هي مفتتة، ليسهل التحكم بأمرها.

وحيث إن اللغة هي أقوى ما يجمع هذه الأمة، فلا بد من استهدافها. إذ إن حماية اللغة وتمكينها سيجعلان الأمة أقوى على الصمود في وجه الإعصار القادم من الغرب، فهي أعمق جذور حضارة الأمة وأثبتها في الأرض، وستنبت وتزهر بعد انحسار الطوفان.. هي روح الأمة.

ويقول دعاة التدريس بالعربية إن البراغماتية التي يوردها القائلون بالتدريس بالإنكليزية مبرِّراً، هي النغمة نفسها التي سئمنا سماعها كمبرر لتقديم التنازل تلو الآخر في قضايانا القومية، وربما كان هذا التنازل (عن اللغة) من أخطرها، إذ هو تنازل عن روح الهوية ذاتها.

ثم يورد أصحاب هذا الرأي دليلاً آخر لدعم رأيهم: إن اللغة العربية لغة جميلة قوية، وهي من أقدر اللغات على التعبير عمّا في الضمير وعلى احتواء العلوم؛ فلديها الوسائل التي تكفل إيجاد الكلمات المناسبة للمستجدات العلمية. وقد ثبت ذلك على يد فئة مخلصة من الأطباء

(٢) إبراهيم حداد، «تعريب تعليم العلوم في التعليم العالي،» **المجلة العربية للعلوم** (١٩٨٦).

المنارة للاستشارات

من مختلف البلدان العربية، وضعوا معجماً طبياً إنكليزياً ـ عربياً يضم ١٢٠,٠٠٠ كلمة، هي أكثر من كافية لتوحيد الترجمة؛ على رأس هؤلاء في بذل الجهد والوقت، الصديق د. هيثم الخياط وأستاذي د. مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق. ويقول أ. المسدي: لأول مرة في تاريخ البشرية يكتب للسان أن يعمر سبعة عشرة قرناً، محتفظاً بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية، فيطوعها جميعاً ليواكب التطور الحتمي في الدلالات.

ويقول الكاتب الإسباني كاميلوسيلا الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩، في تنبؤاته المستقبلية حول مصير اللغات الإنسانية نتيجة لثورة الاتصالات: ستنسحب أكثر اللغات من التعامل الدولي، وتتقلص محلياً ولن يبقى من اللغات البشرية إلا أربع لغات قادرة على الوجود العالمي، والتداول الإنساني هي: الإنكليزية، والإسبانية، والعربية، والصينية. ثم يستشهد المدافعون عن العربية كلغة تدريس، بأن اللغة العربية هي إحدى اللغات الرسمية للأمم المتحدة، إلى جانب الإنكليزية، والفرنسية، والروسية، والصينية والإسبانية؛ وذلك منذ عام ١٩٧٣. والغريب المؤلم أن كثيراً من ممثلي البلدان العربية لا يفعّلونها هناك كما يجب، يتضح ذلك في مقالة للصديق د. جورج جبور، الذي كتب وتكلم بحسرة على هذا الموضوع: «إذن المشكلة ليست في العربية، وإنما في همة أهلها في التعريب، ويجب استنهاض هذه الهمة».

ويضيف القائلون بالعربية: إن خريج الجامعة في الاختصاصات العملية سيتعامل مع أفراد مجتمعنا العربي، وسيكون عليه إفهام أهله بلغتهم كما في الطب مثلاً.

ـ ٥ ـ

وخلاصة القول، إن حجة القائلين بالتدريس بالإنكليزية هي القبول بواقع تهيمن فيه هذه اللغة، ولا فائدة من المكابرة، والمصلحة تقضي بالاعتراف بها وركوب الموجة بدلاً من مجابهتها، ومصلحة الطالب تقتضي التدريس بالإنكليزية لمتابعة العلم والاستفادة من المصادر بأنواعها من كتب ومجلات ومواقع إلكترونية ومؤتمرات، كما سييسر له الحصول على عمل بعد تخرجه.

الآخرون يقولون إن التدريس بالعربية يعطي مردوداً أفضل للدرس، ويستعمل الكفاءات بمختلف مصادرها اللغوية، واللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم بشهادة تاريخها، والتدريس بها يحفظها ويمكّنها، الأمر البالغ الأهمية لحفظ وحدة هذه الأمة ورفع مكانتها العالمية، بدليل الاهتمام الواضح للدول المختلفة بتمكين لغاتها ومحاولة نشرها ولتدريسها التعليم العالي بلغاتها وليس بالإنكليزية.

تُرى، هل يمكن الجمع بين هذه الفوائد المتعددة التي تبدو لأول وهلة متناقضة؟ هل يمكن أن تكون لغة التدريس هي العربية مع تأكيد متعمد ومدروس للغة الإنكليزية يؤخذ على محمل الجد منذ الدراسة الأولى للطالب ويمتد حتى نهاية المرحلة الجامعية؟ هل من المفيد أن نبحث بشكل موضوعي عمّا فعلته بقية الأمم لتلافي هذا التناقض وهو يشملها كما يشمل الأمة العربية؟ وربما كانت الأمة العربية أكثر قدرة على التحرك من معظم هذه الأمم بحكم حجمها وثرواتها وتاريخها.

المنارة للاستشارات
ww

اللغة العربية هي روح الأمة وهي أمانة في أعناق المثقفين، وهي تمر بمرحلة صعبة، تتعرض فيها لسهام مسمومة، وتقف صامدة تنتظر نُصرة أهلها الذين تدافع عن وجودهم ووحدتهم، ولا يجوز لنا أن نقف متفرجين لامبالين، نشاهد أمام أعيننا محاولة اقتلاع أهم جذور بقاء وحدتنا.

الحفاظ على اللغة العربية وتمكينها ربما كان العلاج الوحيد المتبقي في جعبتنا لشفاء هذه الأمة من الأمراض المزمنة والضربات المتكررة التي تتعرض لها، وعلى أبنائها البررة أن يضحوا لتقديم هذا العلاج إن أرادوا أن يكتب لهذه الأمة البقاء، إن قصرنا بذلك فبئس الأجيال العاقة نحن، وستدفع الأجيال المقبلة ثمناً غالياً لتقصيرنا □

المنارة للاستشارات
ww